اقرأ
دراسة دلاليّة نحوية

محمد عبد الله حبر
معهد تعلّم اللغة العربيّة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة
القضية:

كان أول ما نزل من القرآن على محمد عليه السلام في غار حراء قول الله تعالى في أول سورة "العلق" (1): "أقراً" (1)، وكان من عادة محمد عليه السلام أن يقضي في ذلك الغار الليالي ذات العدد، قد تبلغ شهرًا من كل سنة، معتقفاً يتحثبت (2)، ويعبد الله على ما اهتم إلى عليه بطغته، منتجبًا ما كان عليه أهل المكة، فلم يكن يتقرب إلى الأوثان، ولا يأتى ما كان قومه يأتونه من أمور الدين. وقد عرف عنه أنه كان أميبًا; لا يكتب، ولا يقرأ (3) بما نفهم اليوم من معنى "القراءة".

وفي حراء يتحمل له جبريل عليه السلام، ويقول له: "أقراً"، ويجيب عليه محمد عليه السلام إجابة من فنّجاه أمر غير مألوف. وقد كان كذلك حقيقة: "ما أقرأ"، فيجعله، ثم يرسله ويقول له مرة أخرى: "أقراً"، ويكرر هذا ثلاثًا، ثم يقول له جبريل: "اقرأ". باسم ربله الذي خلقه، فيكون هذا أول الوحي في خمس آيات.

فماذا كان المراد من "اقرأ"؟ ولم يكن محمد قادرًا؟

واقترن بالباء معمول "اقرأ" - وهو فعل متعدد بنفسه - فتناول النحويون وأصحاب المعامج اقتراحه بالباء؛ فجعلوه منه قاعدة استثنائية لا داعي لها (4)، وتاولوا ما ورد عن العرب من ذلك (5).

(1) البخاري: الصحيح; الحديث الثالث من كتاب "بادء الوحي"، 1: 77، ط. الأميرية، 1311 م.
(2) ابن هشام: السيرة النبوية: 51، تحقيق مصطفى السقاف وزميله، ط. الجلفي، القاهرة، 1936 م.
(3) هذا مفهوم جوابه لجبريل في الرواية التي تذكر "ما أنا بقارئ"، والمشهور عنه أنه لم يكن يكتب ولا يقرأ.
(4) ذكر ابن هشام شاهداً على الموضع الثاني مما تراود فيه الباء - وهو المفعل به - قول الراعي النميري: "هَيْ السُوءُ الحَمَّارَةُ لا يُقَرْأَانَ بِالسَّوْءُ المحاَجِرِ". (معجم اللبيب: 2: 131).
وفي ظني أن تجلية الأمر تحتاج إلى تتبُع ما كان يُفهم من هذا اللفظ منذ أقدم مرحلة معلومة من مراحل استعماله قبل أن يَتَخَذ مفهومه الحالي.

وليس بعيد من هذه القضية ما يُفهمه الفعل "أثَّر" ؛ إذ يبدو كأن بينه وبين "أخر" ترادة، أو كان بينهما تداخلًا في أقل تقدير؛ فهما بردان في "القرآن" الكريم في سياقات متشابهة أو تكاد. وتتبع تصرفات الفعلين وسياقات ورودها في النص القرآني قد يعين على بيان ما يمكن فهمه من كل فعل، بصورة تجعل ما بينهما من أوجه التقارب والتباعد والترابط.

ولقد عبر زمن غير قصير عَرَف فيه تعليم العربية في مراحل الدراسة الأولى ما كان يُعرف بذروة "المطالعة" و"يمني فيه المعلم والتعلم بِ"القراءة" الجهرية، وإجادة النطق والإلقاء، وما كان درس "القراءة" يُعني غير هذه الصورة من المطالعة حتى إن الكتاب المدرسي المخصصة لذلك كانت تحمل اسم "المطالعة المختارة"، لذا رأيت أن تفهم ما يؤديه الفعل "طَالَع" قد يفيد في هذا المجال.

والمؤلفات في تفسير القرآن العظيم وفي شرح الأحاديث تُقدِم بغير شك - فوائد تاريخية ولغوية ذات نفع جليل فيما يُخص هذا العمل؛ بإيضاح الموقف، والحالة التي كان عليها الرسول ﷺ عند تعرُض له - وهو حالته البشريّة - لهذا الأمر الذي تلقاه ممّن يختلف عنه في كل مظاهر الحُلق بما لا يُكن يعهد من الصورة والهيئة، أو بما قد نجد من روایات فيها تفصيل أو توضيح وفِضْل بيان لذلك الموقف، أو قول قد يكشف عن احتمال توجيه إلى معنى لم يلتقب به السابقون في تناولهم لهذا الأمر.

أضيف إلي ما سبق أن دعاء كثيرين ممّن يسعون إلى المباهلة بالإسلام يرفعون شعار أن الإسلام يحض على طلب العلم؛ ويستدلون على ذلك بأن أول آية نزلت من القرآن: "اقرأ"، وهي تدعو إلى "القراءة"، والقراءة في مفهومهم تعني مدلولها الحديث، ولم يدركوا ما اتخذه اللفظ من معنى مختلف في خلال الزمن.
مادة "ت ل و" في لسان العرب:

يقدم اللسان معنيين مادة "ت ل و":

الأول: معنى الأتباع، يقول: تَلَوْهُتْ نُؤْلُوُهُ تَبْعُتُهُ، وهذا نترو هذا أي: تُبْعَتُهُ، وقوله تعالى: [ذين أَتَيْنَا هُمُ الكِتَابُ يَتَلُوْنَهُ حَقّ تَلَوْنَهُ] (111: البقرة) معناه: يتَبَعُونَهُ قَرْأَةً أَتَبَاعَهُ، ويعملون به حَقّ عِمْلِهِ.

الثاني: معنى القراءة؛ ينقل عن النبي: تَلَوْهُ تَلَوْهُ بِعَيْنِي: قَرْأَةً قُرْآنَةً.

ولعل المعنى الثاني أن يكون آتياً من المعنى الأول، فالثالوة تتبع كلمات قيّدت قُرْآنًا، وأداها باتباع ما جاء فيها، مع إعلانه والجهر به.

والمعنىان متحققان في الاستعمال القرآني:

الأول: حين يرد الفعل "تلا" وتصريفاته متعدية إلى المفعول به بغير أن يتعلق به مجرياً ب"على" كما في قوله تعالى:

1. [والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها] (الشمس).

2. [أتمنى الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتنولوج الكتاب] (44: البقرة).

3. [أقسم كان على بينة من ربي ويتلوه شاهد منه] (17: هود).


5. [واتل ما هوichi إليه من الكتاب] (45: العنكبوت).

6. [ذين آتيناهم الكتاب يتنولوجه حقيق تلاوته] (111: البقرة).

7. [إن الذين يتلولوج كتاب الله.........] (29: نافع).

والثاني: حين يرد مع الفعل حرف الجر "على" كما في قوله تعالى:

8. [يسمع آيات الله تتنولوج عليه ثم يصر مستكبراً كان لم يسمعها] (8: الجاثية).


10. [وإذا تتنولوج عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا.........] (31: الأنفال).

مجلة الدراسات اللغوية منذ 11 ع (ربع الأخر، جمادى الآخرة 1330هـ/أبريل، يونيو 2009م)
مادة "و لا ي" في لسان العرب


و قد رأيت أن أذكر هذه المادة مع مادة "ث ل و" لما لاحظته بينهما من اشتراك في المعنى، واشتراك اختراضي في الأصل مع وقوع إبدال في فاء الكلمة وإعلان في لامها.

مادة "طلع" في لسان العرب

وأما مادة "طلع" فإن اللسان يقدم له معنيين:

الأول: الظهير، وما يترتب عليه من النظر والرؤية الحسية، يقول: "اطلع العين، الفجعأ اطلاعًا، أي: نظرت إليه حين سمع، واطلع آشرُف على شيء، والطلعة: الرؤية، وطالعت الشيء، أي: اطلع على شيء، وطالعته فإنه فثار ما عنده.

والثاني: المعرفة بالأمر والعلم بالنسب والنظر المعنوي، يقول: "اطلع على الشيء، إذا علمه، واستطع رأيته: نظر ما هو، واطلع عليك على سري، والطيبة: القوى يعثون بطلاعة حسب العدو، وفي القرآن ٧ الأفاظ من وزن أفعل وواحد من أفعل، والظهور وعده الخفاء هما الجانب المشترك في المعنيين، فالمطالعة نظر، وتعرف، ثم إعلام وإبانة عمّا في كتاب المطالعة".
مادة "ق رأ "في لسان العرب

وأما مادة "ق رأ" فلها في اللسان عدد من المعاني والاستعمالات:


وقال ابن الأثير: تكرّر في الحديث ذكر القراءة، والأقرار، والقارئ، والقرآن، والأصل في هذه اللفظة: الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرانته، وسمي القرآن، لأنه جمع القصص، والأمر والنهائي، والوعد والوعيد، والآيات والسُور بعضها إلى بعض.


أي: يجمع ما يأكل في فيه، وقرأت القرآن: لفظت به مجمعًا.

والثاني: النبطين، ويه فقر ابن عباس رضي الله عنهما قوله الله تعالى:

11. ... فإذا قرّاناه فاتبع قرّانه (القيام).

قال: "إذا بينت لك بالقراءة فاعمل بما بينت لك.


وبين المعنيين الثاني والثالث صلة غير خفيفة: فالبيان معنى مستمد من الجهر.

والجهر وضوح، وعلّام، وإعلام في غير خفاء.


وهذا المعنى الرابع قريب من الثالث: فالإبلاغ والإعلام متعلقان.
والمعاني الثالث والرابع: الجمهور والإبلاغ، وما يقارنهما من الإعلان والتبيين

يقدمان المفهوم الواضح، فيما أرى للاستعمال القرآني للفعل "قرأ" و"تصرُّفاته،
ولللفظ "قرآن"؛ فهو يمعنى البلاغ والبيان، وبهما وصَفَ الله تعالى "القرآن"، في
عدد من الآيات:

12. «هذا بَلاغ للناس، وَلِيُذْكَرُوا به» (۵۴: إبراهيم).

13. «هذا بيان للناس وَهُذى وَمؤَذِّنًا لِلمتقين» (٣٠: عمران).

وعصِف القرآن بأنه مبين فقال:

14. «إِن هُوَ إِلَّا ذِكَرٌ وَقُرآنٌ مُبِينٌ» (٧: س).

15. «تَفْلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرآنٌ مُبِينٌ» (١٨: الحج).

وعصِفه بالكتاب النُصِيطن، فقال:

16. «فَلَيُوحِي عَلَى الْأَرْضِ نِورًا وَكِتَابٌ مُبِينٌ» (المائدة).

17. «تَفْلَكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٌ مُبِينٌ» (النمل).

18. «تَفْلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ النُصِيطن» (البقرة، الشعراء، الفصل).

ومع ما يظهر من التقارب في المعاني بين المواد الأربع نجد لكل واحدة جانبًا
خاصًا تنفرد به؛ فالتلاوة والولاء، لهما معنى التباع، والمطالعة لها معنى التعرُّف
والإشراف، والقراءة تختص بالبيان، والظهور، والإبلاغ، والجهر.

وفي المعجم الوسيط شرح معاصر للفعل "قرأ" يجمع بين عدد من المعاني التي
وَرَدَّت في اللسان؛ ففيه: "قرأ الكتاب، قراءة وأَقَرِأْنا: تَبَيَّنَ كُلُّ مَا نَظَرَ وَنَطَلَ
بها".

و- تَبْيَنَ كُلُّ مَا نَظَرَ وَنَطَلَ بِهَا، وَسَمِيتُ حديثا بالقراءة الصامتة.

و- الآية من القرآن: نَطَلَ بالغالبها عن نَظَرٍ أو حَفَظٍ.

و- الشيء قَرِئًا: جمعه وضَمَ بعضه إلى بعض.
والنطق هو المفهوم الجوهرى في القراءة، وعده استلزم التفرقة بنعت خاص هو "الصامتة"، وهو أشبه بتعرف سلب في مقابل المفهوم الأصلي: الجزء.

* "وتعزو معنى مادة "ق را" في العربية يساعد في توضيح معناها في العربية؛ ولعل أثر الأصل السامي المشترك واضح في اللغتين؛ ف "المعجم العبري الإنجليزي A Hebrew And English Lexicon Of The Old Testament" للفاظ العهد القديم".

يفسر المادة العبرية Edward Robinson وترجمته William Gesenius الذي وضع أصله بما يقرب من المعاني المذكورة في "لسان العرب" المعنى الأول لها في العبرية هو الدعاء، النداء، إطلاق الاسم، الإعلان، القراءة، وفي العصرية المتأخرة (الحديثة) تدل على ذلك المعنى وعلى القراءة الجهرية، والتلاوة (للقرآن)، ثم يذكر الفعل نفسه في اللغة الآرامية القديمة والسريانية بمعانيه المذكورة، ثم يقدم ما للفعل من دلالات فرعية، وموضوع ورودها في العهد القديم من دعاء وصياح، وإصدار صوت مرتفع لحليم الله أو استغاثته، ونداء صاحب اسم باسمه، أو استدعائه، وذكر له. وواضح أن جوهر المعنى هو "الجهر" في مقابل المخفافاة والإسرار. والمعنى الآخر هو: الالتقاط والانتحام (كما في الفقات مثلا)، وقد أورد المعجم نظيره في العربية وهو ضم أجزاء بعضها إلى بعض، وهو المعنى الأول للفعل "قرا" في اللسان.

* وإذا كان معنى ضم شيء إلى غيره هو الذي نال الاهتمام الأعظم لدى اللغويين العرب ولدى المفسرين فإن المعاني الأخرى قد بقيت واضحة في العصرية.

وأزعم أن الاستعانة بها في فهم "القراءة" في استعمال القرآن وغيره من النصوص تفيد فائدة عظيمة في حل المشكلة التي أوقع النحويون العرب أنفسهم فيها

(1) p. 894.
(2) p. 895.
بافتراضهم زيادة باء الجر في قول الراعي النميري (1):

"هـن الـحـرائرـلا رـبـات أـخـرة .. سود المحتار، لا يقتير بـالسـور
فلمعنى الذي فهموه من "يـقـرـآن" هو المعنى الذي اكتسبه الفعل في عصور
متأخرة، وهو المعروف الآن، ويراد به: التلاوة، أو مرت الوراء، أو كتابة بغير تحويل
ما هو مدخول بالرموش الكتابية إلى ما يقابل تلك الرموز من الأصوات اللغوية؛ سواء
نطقها "القارئ" بصوت مسموع فصارت قراءته "جهيرة"، أم اكتفى بإدراك ما ترمز
إليه بغير صوت فصارت قراءته "صامتة".

ولو أنهم التفتوا إلى المعنى المتقدم زمنًا وهو الجهر لاستقام لهم فهم التركيب،
ولم يحكموا بزيادة الباء، ولم يلجؤوا إلى أن يفترضوا تضمين الفعل "يـقـرـآن"
معيـن: يـقـرـآن (من الرُقْيَة)، أو يـقـرـآن (من البَرَكَة) لتسويغ الباء المتعلق بالفعل،
"وأبوه يقال: قراءات بالسورة على هذا المعنى" (2). والمعنيان غير ساقيين في السياق.
ولو أن شرائج الحديث النبوي التفتوا إلى معنى الجهر في "اقرأ" لجاء شرحهم
أكثر وضوحًا، ولم تردوا في فهم الروايات المختلفة لحديث "بـذـء الوَهـي" الذي
يتكرر فيه أمر جبريل عليه السلام لـمـحمد ﷺ: "اقرأ"، ولا يستجيب له مـحمد،
فبغضه جبريل ثلاثًا، ثم ينْقَل يـقـرـآن، فـبـعـد فـيـكون: "اقرأ" باـسـم رَبِّك الذي خلق
ولا صلة لهذا التكرر اللغوي بما فهم الشرائح من الأمر الذي سبَّقه ونكَرُ

(1) ابن هشام: مغني اللبيب: (مغني اللبيب: 2: 163)، اللسان: ق رأ.
(2) ابن هشام: (مغني اللبيب: 2: 163)
إلى رواية: "كيف أقر؟" (1) يستطيعون بها على أن جواب محمد ص لم يكن يعني نفي مقترحه على القراءة، بل كان يعني الاستفسار عن كيفية القراءة؟ فهي قراءة مختلفة عمَّا نفهمه الآن من القراءة، فكان الأمر: "أقر" باسم رائب الذي خلق أقرب إلى الامساك، وإن يكن الاستفسار بـ "كيف" غريبًا في مثل ذلك السياق، ولم أعرض له إلا لمناقشة احتمال ورود معنى الاستفسار.

وأمَّا تناولهم لم يعنى النفي الذي فهم من "ما" فإنهم لم يجادلوا الصواب فيه؛ فإن وجود الباء في الخبر "بقارئ" دليل قوي على إفادة النفي، لولا أن شغب عليهم ما نسب إلى الأخفش من جواز دخول الباء بعد "ما" الاستفسارية.

ولقد كان اهتمامي موجهًا إلى ما رواه البخاري في صحيحه لما تشير به من دققة التثبت من سنةه، حتى شهد له العلماء بأنه أصح كتاب بعد كتاب الله.

ولكن الشرح أشاروا إلى روايات أُحرَّح حديث "بده الوجي" فيها من التركيب اللغوي ما يُجسح فيهما مختلفًا لم تُنحِّ برواية البخاري؛ ففي إحدى تلك الروايات نجد قول الرسول عليه السلام: "ما أقر؟" (2) وفي أخرى: "ما أقر؟" (3)، وفي ثالثة: "كيف أقر؟" (4) ؛ فالروايات الثلاث تُورِّد الاستفسارًا لا نفيًا، وهذا أقرب إلى الحالة التي كان عليها الرسول عليه السلام. ولعل أقرب الروايات إلى ذلك هي التي فيها: "ما أقر؟ فإنا وردت "ما" جعل احتمالا للنفي والاستفسار أمرا وارداً، ولكن الاستفسار أقرب كما استفسلت، وكب الاستفسار الرسول عليه السلام استخبارًا معناه: ماذا أُعلَن؟ أو ما أدعو؟ أو يم أجهز؟ وكذلك معنى الجواب: أُعلَن، وأدع، وأجهز باسم رائب الخالق، لا بـ "ما معيد غير" فهو الذي خلق الإنسان من علقulo، وهو

(1) شرح صحيح البخاري; العيني: عمدة القارئ، ابن حجر: فتح الباري، القسطلاني: إرشاد السماري.
(2) هي رواية غريبة عن ابن إسحاق، ووردت في الشرح الثلاثة.
(3) وردت هذه الرواية غير متساوية في شرح العيني، ولم أرواها عن ابن حجر والقسطلاني.
(4) هي رواية عروة عند أبي الأسود في مغازي، ووردت في الشرح الثلاثة.
اقرأ.. دراسة دلالية نحوية

(رَبُّك الْأَكْرُمُ) الذي أنعم على الإنسان بنعمة العلم، ويكون حرف الجر البناء في قوله تعالى: "بَاسَمْ رَبِّكَ" علَى هذا التفسير.. أصليَّاٌ لا زائداً، ويفيد التعددية لا الاستعانة كما ذكر السهيلي ونقل عنه ابن حجر؛ قال: "لا تقرؤه بقُورِتَكَ ولا ببِعْرِتَكَ، لكن بحَوَّلِ رَبِّكَ وإعانته؛ فهو يعلمك كما خلقك".

والذي وجدته عند شرَّاح الحديث النبوي وجدت مثله لدَى المفسرين؛ فهم في تفسير "سورة العلق" يوردون ما ورد من الأحاديث بشأن بُعد الوحي، واهتمامها حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، وهو الذي تناولت روايته عند البخاري آنفًا، ويشيرون تفسير النص القرآني، وقد يلجؤون إلى التحليل النحوي للآيات - أي: الإعراب - لكى يوضحوا ما يعرضون من أوجه التفسير، ف"القرطي" يقول: "ومعنى: "أُقرِّأَ بِبَاسَمِ رَبِّكَ" أي: أقرأ ما أنزل إليك من القرآن مُفتتحًا بباسم ربك؛ وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة؛ فمَحلَّ البناء من بِبَاسَمِ رَبِّكَ النصب على الحال. وقيل: البناء معنى "على"، أي: أقرأ على اسم ربك؛ يقال: فَعَلَّ كذا بِبَاسَمِ الله، وعلى اسم الله، وعلى هذا قال: "مُقَوَّرُ" محفوظ؛ أي: أقرأ القرآن وافتتحه بِبَاسَمِ الله. وقال قوم: "اسم ربك" هو القرآن، فهو يقول: "أُقَرِّأَ بِبَاسَمِ رَبِّكَ" أي: اسم ربك، والبناء زائدة كقوله تعالى: "تُبَيَّنَ بِالدُّهْرِ" (20: المؤمنين)، وكما قال:

هُنَّ الحرات لا رُبُتُ أحَمْراء سُودُ المباحِرَ، لا يُقَرَّرُ بالسُّور أراد: لا يُقَرَّرُ السُّور. وقيل: معنى: "أُقَرِّأَ بِبَاسَمِ رَبِّكَ" أي: الذكر اسمه؛ أمره أن يبتدئ القراءة بِبَاسَمِ الله"(1).

* استعان الفرطي بالتحليل النحوي عندما أشار إلى زيادة البناء، وعندما ذكر لها محلاً إعرابيًا. وقد سبقه إلى ذلك الزمخشري إذا قال: "مَحلَّ بِبَاسَمِ رَبِّكَ النصب

(1) الجمع لاحكام القرآن: سورة العلق 20:19. 116

* واستعان القرطي بـ كما فعل اللغويون والمفسرون من قبله بالتحايل النحوي المعروف بالتضمن عندما أوردوا القول بأن الباب بمعنى "على". ولم يقدِّم أحد من اللغويين والمفسرين، وشرَّاح الحديث تفسيراً لغويًّا لكلمة "اقرأ"، إلاّ ما جاء عرضاً وهو: اذكر اسمه؛ أمره أن يبتدئ القراءة باسم الله. وربما كان هذا التفسير راجعًا إلى تسمية القرآن باسم "الذَّكر" التي تُفهم من قوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نُزُلُونَا الذَّكرَ، وَإِنَّا لَلَّهِ لَحَافِظُونَ" (2: الحجر). وهي من باب التشريف للقرآن، وليست بالمعنى اللغوي للقراءة.

* وحين ننظر في الاستعمال القرآني للفعل "قرأ" وتصريفاته نجد ممعنى الإعلان والجهر وبخاصة حين يتقرر بحرف الجم "على". وهذه آيات يَتضح فيها ذلك:

(1) الكشف: سورة العلق ج 4 ط. الحلبي، 1966 م.
(2) البحر المحيط: سورة العلق، ط. السعادة، القاهرة، 1329 هـ.
اقرأ... دراسة دلاليّة نحويّة

19. ولو تزنه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين (الشعراء).

20. وقُرِّنَا قرَنًا ل القرآن على الناس على مَكَثٍ (1:6: الإسراء).

21. وإذا قُرِّى عليهم القرآن لا يسجدون (الانشقاق).

22. وإذا قُرِّى القرآن فاستمعوا له وأنصتوا (1:24: الأعراف).

23. وإذا قُرِّي القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون حاجباً مستوراً (الإسراء).

24. فاقرأوا ما تيسر من القرآن... فاقرأوا ما تيسر منه... (20: الپهن).

إلا الأمر بالقراءة في الموضوعين الآخرين 24، 25 ولم يكن القرآن قد كتب أو جمع بين دفنة حتى يفهم معنى النظر في الكتابة، والأمر موجه إلى المؤمنين: من يحسن القراءة منهم وهم قليل إذا ذاك ومن لا يحسنها; فمتعى الجمهور بالقرآن واضح فيهما.

* ويتضح معيَّن الإعلان واقتصاد أيضًا في مواضيع أخرى؛ منها:

26. وإذا قرأتنا فأتبع قرآننا (ال-Origin).

27. وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولونًا على أدبهم نفورًا (الإسراء).

28. إن القرآن الفتح كان مشهودًا (الإسراء).

29. وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه (26: نصلت).

30. وإذا أصرفنا إليه نقرأ من الجبن يستمعون القرآن (19: الاحفاد).

31. 24 - 32. ولقد يسرنا القرآن للذكورة (17: 22، 26، 32، 40: الفجر).

32. ورث القرآن ترتيلاً (المروي).

33. فقالوا: لا تسمعنا قرآنًا عجبًا (الجن).

34. إن علينا جمعه وقرانه (ال-Origin).

35. إن أزلنا هذا القرآن على جيل ليأتيه خاضعاً متصدعاً (21: الحسن).

* وكذلك إذا نعت "القرآن" بنسبيته إلى لسان قوم؛ كما في:
45. (ولو جعلنا قرآناً أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته) (44: نصلت).
فاللغة هنأ هو ما يقرأ معلناً مجهورًا به بذلك اللسان على ما هو معروف من
النطق باللسان؛ أي: اللغات المنطوقة.

*ويفهم من صيغة "أفعال" معنًان: الإبلاغ، والتدعية؛ أي: إيجاد القدرة على
القراءة، والتحكم فيها، وهي هنا يمهد التلاوة الجهرية.
فالمعنى الأول يتحقق فعلي: "يقرئك السلام".
والآخر في: الإقراء، والعمرئ - لمن ينوي تدريب المتعلمين على قراءة القرآن
خاصًا - وقد عبر صاحب اللسان عن هذا بقوله: "آسرائي فلان، أي: حملتي على
القراءة".

وبصلح للممدين قوله تعالى: "سنتقرئك فلا تنسى" (الأعراف: 1) ؛ فالبلاغ,
والإفادار على القراءة يفهم من الآية.

* صيغة "استفعل" تعني طلب القراءة - كما في اللسان - وهنا يكون الجهر
مطلوبًا؛ سواء أكانت القراءة عن نظر أم حفظ.

* وإذا خلا التركيب من الباء و "على" فهم من "قرأ" وتصرفات المادة معاً
خرى بجانب الإعلان، والجهر، والبيان؛ كالتلاوة، والأطلاع على ما في الكتاب،
وتتبعه؛ كما في قول الله سبحانه:

46 - 47. (إذا قرأت القرآن فاستعد باللسان) (98: نحل).
47. (حتى تنبأ علينا كتابًا نقرأه) (93: الإسراء).
48. (فأسأل الذيين يقرأون الكتاب من قبلك) (49: يونس).
49. (فأولئك يقرأون كتابهم) (71: الإسراء).
50. (أقرأ كتابًا) (14: الإسراء).
51. هؤلاء أقرأوا كتابة (الحاقة).
52. وأنا أتلو القرآن (91: النمل).
* وإذا قرأنا ما قدتمت من معنى الإعلان والجهر للفعل "قرأ" ونصرفات المادة إلى معنى الدعاء والنداء في قوله تعالى:

53. ذلك بأن إذ دعي الله وحده كفرنهم، وإن يشرك به تؤمنوا (12: غافر).
تبينت صحة ما ذهبت إليه؛ فإن الإعلان العبادة لله وحده دون ما كان المشروكون يعبدون معه أمر مسائل للقراءة باسمه التي وردت في أول آية نزلت من القرآن، والقرآن هو الإعلان، ونداء للنساء، ودعاء لهم إلى عبادة الله وحده، أمر محمد في تلك الآية كان يدعو باسمه، ويعمله، ويجهر به، ويعمل له الروبيعة؛ فهو لا غيره الخلاق الأكبر، الذي وجب الحجية المادية للإنسان بان خلقه من علق، ثم وذهب له علمن ما لم يكن يعلم. افتتحت السورة بالأمر بإعلان اسم الله: (أقرأ باسم ربك) والتحريض بالأمر بالسجود لله، والتقرب إليه: (واسجد واقّرب) (الملك)، ليكون ذلك تطبيقًا عمليةً، واعترافًا فعليًا بما جاء في مطلعها.

والدعاء مهما تعلّى القراءة؟ أي: الإعلان، كما في قوله تعالى في شان من

54. أدعوهم لآبائهم هو أفسط عند الله (5: الأحزاب)؛ أي: أعلنا نسبهم

إلى آبائهم لا إلى من بينوهم.

ثلاث إضافات لها ما يسوغها:

* الأولى:

هَبْنَا سَلَّمَنَا مَعَ اللُّغَوِيِّينَ وَالنَّحَوِيِّينَ وَالْمَفَسَّرِينَ وَالْمَنْدُونِينَ مَا قَدْ تَبَادَرَ إِلَى أَذَاهُنَّ مَعْتَمِمُهُمْ مَا هو مَتَاعِفُ فِي عَسَرِهَا؛ أَعْيِنَ مَرْبِعُ الْبَصَرِ عَلَى كِتَابَة

لَتَحْوِيلِ مَا هُوَ مُدوَّنَ بِأَحْمَرَ الْرَّمْوِ الْكِتَابِيَةِ إِلَى مَا يَقَابِلُهَا مِنَ الأَصِلَاتِ اللُّغِويَّة؛ سواء
نطقها "القارئ" بصوت مسموع فصارت قراءته "جهرية"، أم اكتفى بإدراك ما ترمز إليه في صوت فصارت قراءته "صامتة".

أفما كان على من تلقى الأمر بهذا النوع من القراءة أن يباشر إلى تعلم الكتابة والقراءة، وما ذكر شيء من ذلك في السيرة؟ بل كان له عدد وفير من كتاب الوحي يتولون التدوين وتلاوة ما دُونه للتبثتم من مواجهته لما ألمّ علىهم، وبقي الأمر كذلك حتى اكتمل نزول الوحي، وانتقل الرسول عليه إلى الرفق الأعلى.

* 

الثانية:

حفظت الفترة المبكرة من خلافة أبي بكر الصديق صلاه عليه، بأحداث فريدة في التاريخ الإسلامي؛ وكانت حروب الردة وما تلاها من جمع المصحف من أبرز ما فيها، والأمران متصالحين؛ فمتقتل خمسمائة أو ستمائة من "القرآن" في اليمامة نمبه عمر بن الخطاب الذين، إلى وجوه المبادرة إلى جمع القرآن في مصحف؛ خشية ذهاب الحفاظ الذين كانوا يُقرأ القرآن.

فما كانت كلمة "القراء" تعني، وما كان لديهم مصاحف؟ لقد كانوا حفاظًا بئنون ما يحفظون، أي: يقرؤون جهراً من حفظهم، ولذلك ظهرت الحاجة إلى تدوين ما يحفظون؛ لكبئا يتعرض القرآن للضياع. فالقراءة هنا غير النظر في كتابة لإدراك ما تمثله الرموز من كلمات، وإن يكن منهم من يعرف ذلك.

* 

الثالثة:

كان اللفظ المستعمل لوصف من أكتسب معرفة القراءة والكتابة في صدر الإسلام زمن تال هو "كاتب"، وكان يوصف بأنه "يكتب"، ويفهم من ذلك ضمنًا أنه كان "بقرأ" ما هو مكتوب.
المصادر

ابن حجر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري، نشرة محب الدين الخطيب، ط.
دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ.

ابن منظور: لسان العرب.

ابن هشام (عبد الله بن يوسف الأنصاري، النحوي): مغني اللبيب، تحقيق د.
عبد اللطيف محمد الخطيب، ط 1، السلسلة التراثية (21)، المجلس الوطني
للثقافة، الكويت، سنة 2000م.

ابن هشام (عبد الملك): السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، ط.
الحلبي، القاهرة، سنة 1361م.

أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، ط. السعادة، القاهرة، سنة 1329هـ.

البخاري: الجامع الصحيح، المطبعة الأميرية، القاهرة، سنة 1311هـ.

الزمخشري: الكشف، ط. الحلبي، القاهرة، سنة 1966م.

العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ط 1، دار الكتب العلمية،
بيروت، سنة 2001م.

القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة 1952م.

القسطلاني: إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، ط 7، المطبعة الأميرية،
القاهرة، سنة 1323هـ.